الفصل الحادى عشر

المركز القانونى لولى الأمر
فى القرآن الكريم

فى إطار النسق القرآنى، حفل القرآن الكريم بالآيات الصريحة التى تؤكد مكانة ولى الأمر فى الدين والدنيا على أساس أن ولى الأمر هو المسئول على كل المستويات، وهو يوازى قيادة الإنسان فى خلافة الأرض. كما يدل هذا المركز على أن لكل أمر وليّا، وأن الناس لا يعملون فرادى، وأن الرسول ﷺ قد ألزم الأفراد بأن يؤمروا عليهم أحدهم، بما يشير إلى أن القيادة واجبة ولازمة، كما أن القيادة تكون بالتراضى بين الناس وقائدهم. ذلك أن نص الحديث ألزم الناس بأن يؤمروا أحدهم، أى أن يؤمروا واحداً من بينهم، وأن يتم ذلك بالاتفاق بينهم، ولكن الحديث الشريف لم يلزمهم بشكل الاتفاق أو طريقته. ومؤدى هذا الحديث أن تعيين القيادات أو اختيارهم أمر واجب، ولكن توفر الشروط اللازمة للقيادة تتوف على قدر الجماعة وتقديرها، أو على تقدير القيادة الأعلى إن كان من سلطاتها الاختيار والتعيين.

ومن السهل أن نستعرض الآيات القرآنية الكثيرة التى تشير إلى ولى الأمر، والتى تؤكد أن مكانة ولى الأمر تأتى بعد الله سبحانه وتعالى، ثم رسوله الكريم، ثم يلى ذلك ولى الأمر. بل إن الإشارة إلى ولى الأمر جاءت فى مجال الطاعات، وهو أدق المجالات فى الإسلام. كما أنها جاءت فى مجال النواهى؛ ولذلك فإن هذه الدراسة تحاول أن تضع لمسات عملية على مركز ولى الأمر فى القرآن الكريم وفى الحياة العملية، واضعة فى اعتبارها ذلك القدر الكبير من الأحاديث النبوية الشريفة التى تؤكد النص القرآنى وتدعمه وتضفى عليه الشروح والإيضاحات. فالتوجيه القرآنى بأن ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ**﴾ [النساء: ٥٩] تعد إشارة مطلقة، فلم يحدد القرآن الكريم مستوى ولى الأمر، ونكاد نقول فى ضوء الإشارات القرآنية إن ولى الأمر هو نفسه الراعى فى الحديث الشريف: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**». ومعنى ذلك أن ولى الأمر لا يقصد به الحاكم وحده، وإنما يعد الحاكم هو ولى أمر الأمة، ثم تتدرج الولاية إلى أصغر التجمعات البشرية عندما أشار الرسول

الكريم ﷺ إلى أن ولى الأمر فى الجماعة لأكثر من ثلاثة، **إذا كنتم فوق ثلاثة فأمروا أحدكم**. فما هى الشروط الواجب توافرها فى ولى الأمر إن كان معينًا؟ وما هى الصلاحيات التى يتمتع بها ولى الأمر على من يليه، ومتى تجب الطاعة، ومتى تحجب عنه الطاعة، وما هى الشروط اللازمة لتوليته، والعلاقة بينه وبين رعيته، والأسباب الموجبة للخروج عليه؟

القاعدة العامة التى تحكم العلاقة بين ولى الأمر ومن يليه، وهى التى ترددت فى الأحاديث النبوية، وفى سلوك السلف الصالح من الخلفاء الراشدين، فى قول أبى بكر: **أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم**. وإذا كان القرآن الكريم لم يفصل لنا صور ولاية الأمر وإنما تركها مطلقة فى أحوال دنيا الناس، فإن الصورة الأقرب فى حياتنا هى الحاكم والوالدين؛ ولذلك خص القرآن الكريم الحاكم والوالدين بمكانة خاصة، من حيث إن الوالدين هما أيضًا الصورة الأولى لولاة الأمر فهما اللذين يتعهدان الطفل حتى يشب عن الطوق. ونبهنا القرآن الكريم إلى علاقتنا بالوالدين فى الطاعة والمعصية، فأمرنا بأن نخفض لهما جناح الذل بسبب الرحمة الوافرة التى نستشعرها تجاههما، أى الخضوع طلبًا للرضى، والخشوع طمعًا فى رضى الخالق، وليس خوفًا منهما أو طمعًا فى كسب أو مال أو غيره. فدل ذلك على أن خفض الجناح للوالدين هو امتثال لتوجيه الله سبحانه. وما دام الأمر كذلك، فإن صبر الولد على بعض عقوق الوالدين هو جزء من المجاهدة للانسجام مع التوجيه القرآنى، رغم أن القرآن الكريم قد خلا تمامًا من أى توجيه للوالدين للرفق بالولد؛ لأن الولد يتجه إلى الأمام، فيهتم بما يأتى من قابل أيامه، ويعتبر الوالدين خلفه وجزءًا من ماضيه، لا يلتفت إليه إلا لمامًا؛ ولذلك ورد الحث على رعاية الوالدين أكثر من الحث على طاعتهما، بل لفتنا القرآن الكريم إلى أن كفر الوالدين لا يلزم الأبناء، كما لا يقطع الصلة بينهما، كذلك لفتنا القرآن الكريم إلى أن سعى الوالدين لتكفير الأبناء لا يجوز أن يقابله عداء الأبناء، وإنما الصبر وحسن المعاملة. وجاءت الآيات القرآنية دقيقة فى معناها رقيقة فى مبناها، لقوله تعالى: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا**﴾ [لقمان: ١٥] (أى لا تطعهما فيما يذهبان إليه فى التكفير) ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ**﴾ [لقمان: ١٥]. وهذه

الإشارات الثلاث فى هذه الآية تتحدث عن أحرج لحظات العلاقة بين الوالدين والولد، حيث لا يلتفت الولد إلى تكفير الآباء، ولكن ذلك لا يكون سببًا فى مقاطعتهما. وكلمة يصاحبهما، هى أعلى درجات الحنان؛ لأن المصاحبة والصاحب هى التلازم فى العيش رغم أن كلاّ منهما ينتمى إلى عالم مختلف، ولا يجمعهما سوى العلاقة الطبيعية بين الآباء والأبناء. فيظل الولد متبعًا سبيل من أناب إلى الله، ولكنه لا يقطع سبيل المصاحبة لوالديه. فالآيات الكريمة التى ورد بها الحديث عن بر الوالدين والأحاديث النبوية الشريفة التى اعتبرت عقوق الوالدين هى الكبيرة التالية بعد الشرك بالله، لتشير إلى المكانة السامية التى يتمتع بها الوالدان والتوجيه للأبناء بالحدب على الآباء. ومن الواضح أن مركز الوالدين فى القرآن الكريم يجمع فى بعض منه جزءًا من مركز ولى الأمر، ولكن الجزء الأكبر ينصرف إلى التشديد على الأبناء برعاية الآباء، ورعاية حقوقهم حتى لو كانوا كفارًا، وحتى لو سعوا إلى تكفير الأبناء رغم أن كلاّ منهما فى معسكر مختلف، ورغم أن علاقة الزوج والزوجة تنفصم إذا اختلف الزوجان إلى معسكر الإيمان أو الكفر، حيث يتم إهدار التكافؤ بينهما، ويسير كلٌّ منهما إلى المعسكر الذى قدر له أن ينتمى إليه. وهذا على خلاف العلاقة العضوية بين الأبناء والآباء، حيث لا يفصلها الخط الفاصل بين الكفر والإيمان.

فى الحلقات التالية بيان أوفى بعد هذه المقدمة لتفاصيل المركز القانونى لولى الأمر فى القرآن وفى الممارسات المعاصرة.

* * *